الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
Coptic Orthodox Church
دراسات كتابية وآبائية
Biblical and Patristic Studies

إعداد: القمص تادرس يعقوب ملطي

أناشيد مُفرِحة
حول عيد الميلاد المجيد

فلنسبح مع الملائكة

للقدِّيس مار يعقوب السروجي

أناشيد مُفرِحة حول عيد الميلاد المجيد

فلنُسبِّح مع الملائكة

للقدِّيس مار يعقوب السروجي

إعداد وتعليق
القمص تادرس يعقوب ملطي
كنيسة الشهيد مار جرجس بسبورتنج
مراجعة لغوية: چوزيف فريد – ساندرا جمال
تصميم: فرح سعد

ميمر على ميلاد ربنا يسوع

الاحتفال بالأعياد السيدية

كثيرون يمارسون الأعياد كعادة، أما أصحاب البصيرة المستنيرة، فتمتلئ نفوسهم تهليلاً بالعيد، فيشعرون مع كل عيدٍ كأنه فريد، أما علّة ذلك فهو الآتي:

1. يفحصون سبب العيد، فيكتشفون محبة الله الفائقة للبشر، يُسَرُّ بهم، ويطلب لهم التجديد المُستمِر والنمو الدائم.
2. بمعرفة ما وراء العيد يحلُّ بهم روح التمييز والحكمة والمعرفة.
3. كرامة العيد لا تمجيد الله، كمن هو محتاج إلى مديحنا له أو شكرنا أو تسبيحنا، إنما كرامته في تمتُّعنا بشركة أعمق مع مصدر حياتنا وفرحنا ومجدنا، بهذا يتمجَّد الله فينا.
4. بروح الاستنارة تتحوَّل الأحداث التي تمت منذ قرون طويلة كميلاد السيد المسيح ودخوله الهيكل، وهروبه إلى أرض مصر، وعماده الخ، إلى خبرة جديدة وتمتُّع بعربون الأبدية. فما كان يبدو بعيدًا يصير في أعماقنا، قريبًا منَّا للغاية.

❖ كلما احتفلتَ بأحد أعياد ربنا، ضع أولاً في نفسك سبب العيد، وبمعرفة السبب يحلُّ بك التمييز لتعطي الكرامة لكل عيدٍ كما يستحق.

لا يوجد شيء يفيد النفس مثل أن يُحَرِّكها التمييز إلى عملها.

كثيرة هي الأعمال التي تُمارَس بالعادة وليس بالتمييز. أما أنتَ إذًا يا محب الفوائد الروحية، فليُحرِّكك التمييز إلى عملك لا العادة. لننظر اليوم إلى العيد بعين النفس النيرة التي يسهل عليها أن ترى الأشياء البعيدة كأنها عن قربٍ[1].

القديس مار يعقوب السروجي

من أنا حتى أتحدث عن سرِّ تجسدك الإلهي؟!

في كل الأحداث ينشغل القديس مار يعقوب السروجي بموقف المؤمنين وردِّ فعلهم ومشاعرهم، إذ يشعر أنهم أصدقاء له، سيلتقون معه يومًا ما وجهًا لوجه، ويعيشون معه إلى الأبد.

إذ يقف القديس يُسَبِّح طفل المذود وينشد له، يشعر بالعجز، فيتطلع إلى طغمة الكاروبيم، يجدهم هم أنفسهم في دهشةٍ، كيف صار الحالّ على العرش طفلاً في المذود دون أن يفارق المركبة الكاروبيمية.

مع تفسير أمر تجسده للقديسة مريم بواسطة الملاك جبرائيل، تقف القديسة مريم في دهشة، فإن سرّه يفوق كل عقلٍ وكل لغةٍ.

❖ ميلادك مُدهِش يا ابن الله؛ وفمي صغير لينطق بخبرِك العظيم.

فمي حقير، واستعلانك مُرتفِع من جميع الأفواه؛ كيف أقدر أنا الضعيف أن أقول خبر ميلادك.

لا يستطيع العالم جميعه يا سيدي أن يُخبِرَ بمجدك؛ فكيف أزاحم أنا الحقير على خبرك.

---

[1] 218 ترجام على جمعة الألم (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني) بتصرف.

أبوك فقط يعرف كيف هو ميلادك؛ فبأي فمٍ يتكلم التراب والغبار عنك.
استعلان تأنسك أيضًا مخفي من أمك؛ فمن هو الذي يتكلم عن مولدك الإلهي...
ليس من فم كاف أن يتحدث عنك إلاَّ أباك؛ كيف وبماذا يمتد لساني على خفيتك.
خبرك مخفي عن الملائكة؛ فبأي صوت أُرسل لك أصوات كلامي الحقيرة.
لا يعرف الكاروبيم المرتبطون مكانك؛ فلأي جهةٍ يسافر ضميري ليتكلم عنك[2].

القديس مار يعقوب السروجي

أين أطلبك وأُغَنِّي لجمالك يا أيها الابن العجيب؟

في حيرة يتساءل القديس مار يعقوب السروجي تُرَى هل يتغنَّى بعظمة جلاله المُعلنة على مركبة الكاروبيم، أم يتحدث عن عظمة حبه وتواضعه، إذ صار طفلاً تحمله القديسة مريم على ركبتيها؟!

❖ أين أطلبك أيها الابن غير المحدود، فأنت مخفي جدًا...
إلى أي مكان تطير حواسي لتتصيدك؟ وفي أي ميعاد أتفرس فيك، وأنظرك أيها المُحتجب؟
أين يدرس العقل طريقك ويطلبك هناك؟ وبأية وسيلة تتحرَّك الكلمة لتُغَنِّي لجمالك؟
أين توجد؟ على المركبة أم عند مريم؟ عند أبيك السماوي أم عند يوسف؟
في أرض يهوذا أم في حضن أبيك؟ أو بالحق في أحشاء مريم؟...
هل يجدك الإنسان على أجنحة النار والريش المتواتر، أم في حضن الأم الصبية تتعظم؟
هل أنظرك على ظهر الكاروبيم، أم على الركب المؤتمنة حيث حلَّت عظمتك؟
هل بهاؤك بداخل عسكر شعاع النور، أم في المذود ملفوف بالأقماط كالمساكين؟...
فوق العجلة الناطقة (النارية) أنت محمول، أم على يديّ ابنة داود تتكرَّم؟...
هل أطلب أن أراك أسفل، أم أن أتفرس فيك فوق؟[3]

القديس مار يعقوب السروجي

هل أنشد عند ميلادك أم أصمت؟!

كثيرًا ما يقف القديس في حيرة بين الشوق الشديد والغيرة المتّقِدة نحو التسبيح وبين الالتزام بالصمت لعجزه عن التعبير. ففي حبه لله وتذوُّقه لعذوبة التسبيح يود ألاّ يتوقف، وفي شعوره أن كلماته قد تُشَوِّه الحق لعجزه عن التعبير يشعر بالالتزام بالصمت. هذا ما يدعوه أن يصرخ إلى الله، أن يتقبَّل كل الحديث فيه ككنارة (تشبه القيثارة) تلعب أصابع الرب عليها، ويُقَدِّسها روحه القدوس، فتخرج الكلمات كما من عند الرب نفسه. كان القديس يحسب التسبيح عطية إلهية تُقَدِّمها له نعمة الله.

---

[2] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[3] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

❖ إن اخترتُ السكوت يتولَّد فيَّ الضجر؟ وإن تجاسرتُ وتكلمتُ، فهو رُعْبٌ عظيمٌ لأني ضعيف.
انضغطت بين الاثنين، أيهما أختار! إن سكتُ أضجر، وإن تكلمتُ أرتعب، فماذا أعمل؟
لك أعطي يا رب كنارة (تشبه قيثارة) كلامي، حرّكْها بإصبعك وبنعمتك يمجدك الصوت.
بحركات الروح يلد لساني قول تسبيحك، ولأني غير أهلٍ لترتيل قولك، تكلَّم أنت فيَّ.
أنا مزمار، وخبر الصوت والكلمة والروح؛ أمسكني أنت فيك، فأرتل لكَ من الذي لك.
بقوتك حرّكْ كلام لساني على خبرك، وبموهبتك أُرَتِّل سُبْحَ ميلادك.
ولأن ميلادك الأول مخفي حتى عن الملائكة، أهِّلني أن أُرَتِّل هذا الأخير الذي من ابنة داود[4].

القديس مار يعقوب السروجي

تقدمة التسبيح المقبولة

يرى القديس أن التسبيح عطية تُقَدَّم من الله لمحبِّي التسبيح، غير أنهم يعودون فيُقدِّمونها له بالحب كمن يصنعون تاجًا من عمل الله نفسه، وقربانٍ وذبيحة تسبيح وفلسا الأرملة الفقيرة (مر 12: 42).

❖ اعقد تاجًا من ألفاظي وأُقَدِّمه له؛ لأن عاقد التيجان وضع نفسه بين المساكين (بتجسده وميلاده).
آخُذ أصناف أصواتي المُتَّسِعة، وأدخل قدَّامه؛ لأن لابس البهاء لبس جسدًا من ابنة داود.
أتقدَّم وأُعطِي قربان كلامي، وأسجد للكاهن الآتي ليكون ذبيحًا عوض الخطاة.
ألقي فلسي على المائدة بتمييزٍ، للراعي الذي نزل ليكون حملاً وسط حملانه.
أضاعف كلمتي على خبره، وأمتد إليه، لأنه "الكلمة" الذي جاء وصار جسدًا ولم يتغيَّر[5].

القديس مار يعقوب السروجي

حوار الملاك جبرائيل مع القديسة مريم

يرى القديس مار يعقوب السروجي أن الله أرسل الملاك جبرائيل للقديسة مريم، لئلا تتحيَّر عندما تنظر الحَبَل في أحشائها بدون زواج. كما يُصَوِّر لنا حوارًا عجيبًا حين سمعت صوته. قال لها: "سيدي معكِ"، فأدركت أن الذي يكلمها عبد، ودُهشت من السيد الذي يحمل عبده هذا البهاء العجيب!

هكذا يُقَدِّم القديس مقارنة بين الملاك جبرائيل والحالّ في أحشاء القديسة مريم، وذلك على لسانها:

1. إن كان الملاك الرسول والعبد يرتدي بهاءً كالبرق، فماذا يكون بهاء سيده الذي يتجسد فيَّ.
2. ظهور الملاك في البيت ملأه بدخانٍ نواراني مجيد، فكيف تحتمل الجبال حضور الحالّ فيها؟
3. مع خطوات الملاك في ظهوره ينثر جمرًا سماويًا، فكيف لا تبيد الجبال حين يطأها سيده؟
4. إن كان صوت الملاك أرعد في أذنيها، ألاّ يزلزل صوت سيده الأرض، ويُشَقِّق الصخور؟

[4] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[5] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

سألته القديسة عن اسم سيده ومكانه، أجابها إنه مخفي، وهو يحلُّ فيها. مكانه بعيد عن الكل، هو وحده يكشف لها عن سرِّهِ إذ صارت أمَّه.

❖ إن كنتَ وأنت عبد ترتدي ما هو مثل البرق، إذًا فسيّدك كله نور كما تقول.
إن كان وجهك شمسًا عظيمة الإشراق، فالشمس لا تستطيع أن تتفرَّس في سيدك...
بمجيئك صار البيت يُدَخِّن، لأنك نوراني، فالجبال لا تحمل سيدك، إذ تنحل قدامه.
إن كانت خطواتك تنثر الجمر، فكيف يطأ سيدك الجبال ولا تبيد؟!...
إن كان صوتك كصوت الأقوياء يرعد في إذني، فالذي أرسلك كلامه يزلزل الأرض.
إن كان الرعد يخرج من شفتيك، فسيدك إن أرسل صوته يشقق الصخور...
إن كنتَ عبدًا فمن هو سيدك. لا تُخْفِ عني، اكشفْ لي خبرك المُدهِش، وفسِّره لي.
ما هو اسم سيدك؟ وأين مكانه؟ ومن معه؟ هل هو بعيد جدًا أم هو ابن هذا المكان أو حال في كل مكان...؟ أجابها الملاك:
كفي أيتها الصبية... سيدي مخفي، ومكانه مخفي، واسمه مستور.
هو مرتفع عنا، ومخفي منكِ، وبعيد عن الكل. هو في أبيه، وحالٌ عندِك، فكيف تُفتِّشين عنه؟
لم يُظهِرْ لي (سرَّه)، لعله يُظهِره لكِ فأنتِ أمه. هو مُختَفي عنا، ولا أعرف أن أتحدَّث عن سرِّه.
سمعتُ صوته، ولم أكن أهلاً أن أراه. قَبلَتْ أُذُني صوته، أما هو ففائق عن نظرهِ بعيني.
سمعت منه أنه يأتي إليكِ، وها أنا أبَشرِكِ، انظري، ها هو يحلُّ فيك، وتعلمي منه بتدقيق[6].

القديس مار يعقوب السروجي

إصرار البتول على معرفة السرّ الإلهي

في أكثر من موضع قارن القديس بين حواء الجديدة القديسة مريم وحواء الأولى. هذه تعرف متى تصمت ومتى تتكلم، أما حواء الأولى فأخطأت حين تكلمت وأيضًا حين صمتت.

حواء الأولى دخلت في حوار مع الحيَّة بخصوص الوصية الإلهية فتشككت في الوصية. أما حواء الجديدة فسألت الملاك لتتمتَّع بمعرفة السرّ الإلهي، وحين أدركت أن الأمر صادر من الله، خضعت قائلة: "ليكن لي كقولك" وصمتت. صارت تتذكر الأحداث وتتأملها في قلبها (لو 2: 19، 51).

يرى القدّيس إيرينيؤس أن طاعة القدّيسة مريم قد حلَّت موضع عِصيان أُمِّها حواء؛ الأخيرة بعِصيانها عقَّدت الأمر، وجاءت ابنتها تحِلُّ العقدة بالطاعة.

❖ اندهشت مريم من كلام الملاك العجيب، ولم تَقْبَلْ ألا تسأل... أصرَّتْ أن تتعلم الحكمة منه...
أيها النوراني، إن لم تُعطِني تفسيرًا لن أقبل كلامك... وضِّح لي كلمتك، ولا تكلمني بالرمز.

[6] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

لستُ أنا غبية بالاستعجال مثل أمي حواء؛ التي من صوت واحدٍ صدَّقت وحملت الموت.
لم تسأل مُبَشِّرها (الحية) كيف يمكن للاهوت يبلغ إلينا من الشجرة. فلو أنها سألت لَمَا انهزمت...
أنا لست طفلة مثل (حواء) تلك التي صارت فخًا لرجلها. فإن لم أعرف الأمر لا تنتقل من هنا.
تلك طلبت أن تكون إلهًا، وأنت تبشرني بولادة من غير زواج... لن أسمع كلامك دون دراسته[7].

القديس مار يعقوب السروجي

كيف يكون هذا؟

يقول القدّيس أمبروسيوس: [لم ترفض مريم الإيمان بكلام الملاك، ولا اعتذرت عن قبوله، بل أبدت استعدادها له، أما عبارة: "كيف يكون هذا؟" فلن تنم عن الشك، إنما هو تساؤل عن كيفيّة إتمام الأمر. إنها تحاول أن تجد حلاً للقضيّة... فمن حقِّها أن تعرف كيف تتم الولادة الإعجازيّة العجيبة.]

يقول القديس مار يعقوب السروجي: /كيف يمكن أن يحدث ما سمعته منك، وأنا لم يعرفني رجل منذ وُلدت؟... أي أرض أعطت ثمرة بغير زارعٍ؟ وأي عنقود نبت من الكرمة بدون تلقيح؟
أية شجرة أعطت ثمرة بدون سقي؟ وأي حقل جاء بِغَلَّةٍ بدون فلاح؟...
نظرها مجتهدة أن تفحص الحق، واستعد أن يُظهِر لها الحقيقة...
أنا أُعظِّم سيدي، وسلامه أعطيتكِ؛ لم أعيب فيه قدامكِ كما فعلت تلك (الحيَّة) مع أمكِ.
لم أعرِّك المجد كمثل التي في الجنة؛ إنما أتيت برداء لتكسي به فضيحة أبيكِ.
لم أنسج لكِ لباسًا من ورق العار، إنما أتيت بحلة المجد لتتجسم بكِ.
سيدي هو الحق، ولساني يكرز بالحق، تسأليني: كيف يكون هذا؟ اسمعي وليكن لكِ تمييز[8][.

الروح القدس يحلُّ عليكِ

جاءت إجابة الملاك تكشف عن سرّ عمل الله فيها لتحقيق هذه الولادة: "الروح القدس يحلُّ عليك، وقوّة العليّ تظلِّلك، فلذلك أيضًا القدّوس المولود منك يُدعَى ابن الله". الروح القدس يحلُّ عليها لتقديسها، روحًا وجسدًا، فتتهيَّأ لعمل الآب الذي يُرسِلُ ابنه في أحشائها يتجسّد منها. حقًا يا له من سرّ إلهي فائق، فيه يُعلن الله حبَّه العجيب للإنسان وتكريمه له!

- ❖ الروح القدس يأتي إليك بالقداسة، وقوة العلي تحلُّ عليكِ بالمحبة.
مصوِّر الأطفال يصوِّر ويلبس منكِ جسدًا... هو يحلُّ فيكِ حيث لم يبعد عن أبيه...
لن تحتاجي لزواجٍ لتقبلي الحبَل، لأن الذي يحلُّ فيكِ هو مَنْ برمزه ينجب الزواج (أطفالاً)...
لن يتقدم إليك رجل لتنجبي منه، لأن قوة العلي تُثمِر في بتوليتكِ.
لن ينحل الختم المحفوظ بشبابكِ، لأن النور النقي يُشرِقُ وينزل ويَحلُّ فيكِ.

[7] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[8] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

اطرحي الأفكار الجسدانية من ضميركِ، ولا تفحصي حَبَل بطنك، لأنه ابن الله.
وأيضًا أعطي علامة لمعرفتكِ، ها اليصابات نسيبتك هي حُبْلَى.
العجوز العتيقة التي لها مدة عاقر، ها هي حامل بطفلٍ في آخر أيامها...
إن كانت العاقر، الكرمة التي خربت، أعطت ثمرة، كيف يصعب قبول الحبَل لبتوليتكِ؟[9]

القديس مار يعقوب السروجي

بين تساؤل زكريا وتساؤل مريم

شك زكريًّا الكاهن في إنجاب زوجته، والبتول آمنت، وفي طاعتها قبِلَتْ عمل الله. يقول القدّيس أمبروسيوس: [سَمت بإيمانها على الكاهن؛ فالكاهن أخطأ وتوارى، والعذراء قامت بإصلاح الخطأ.] هكذا صمت زكريًّا بسبب شكِّه وحملت العذراء بالكلمة المُتجسِّد أو النطق الإلهي الذي لن يصمت...

❖ لام الملاك الكاهن الذي سأل: كيف يكون؟ وأعطى الصبية التفسير ولم يلمها.
حواء لم تتشكك فحبلت الموت، ولأنها صدَّقت ولم تدرس الأمر هُزمت.
زكريا الكاهن الشيخ لما سأل ارتبك، لأنه لم يكن مضطرًا إلى السؤال.
فتشت مريم تفتيشًا صغيرًا، وبسؤالها عن الفحص مدَّت المتجاسرين بالصمت...
مباركة هي مريم لأنها أعطت سببًا للخبر الخفي، لكي ينجلي بكلام الملاك[10].

القديس مار يعقوب السروجي

قوة العلي تُظَلِّلُكِ

يرى البعض أن قول الملاك: "قوة العليّ تظللك" يشير إلى دور الآب" في التجسد الإلهي، ويرى القديس مار يعقوب السروجي أن "قوة العليّ" تشير إلى كلمة الله نفسه، كقول الرسول: "بالمسيح قوة الله وحكمة الله" (1 كو 1: 24).

❖ إن كان الروح وقوة العلِّي حلاَ على الصبية، فما هو الذي ينقص الميلاد الكامل باللاهوت؟
قوة العلي هو الابن الحقيقي بغير فحصٍ؛ هو قوة العليّ وعظمة اللاهوت[11].

هوذا أنا أَمَة الرب ليكن لي كقولك

بقولها "ها أنا أَمَة الرب" كشفت القديسة عمّا بداخلها من إيمان وتسليم، وأظهرت أن تساؤلها "كيف يكون لي ذلك؟" لم يحمل شكًا، إنما أبرز رغبة في معرفة السرّ.

❖ سمعت الصوت إن قوة العلي تحلّ عليكِ، ولم تناقش كيف ولماذا ومن أجل ماذا...

---

[9] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[10] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[11] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

أضاءت بالحب هيكلها الطاهر قُدَّام القدوس.
كنست البيت بالقداسة في الداخل، وزيَّنت أساسه من الأشكال المُكرَّمة...
علت الأصوات الممجدة بنار حبها، وهبَّت ريح الطيب المختار من اعترافها...
أجابت: هوذا أنا أمة الرب كما أنتَ عبده، وإن كان اختياره جذبه إليَّ، فأنا لا أهرب.
قالت: ليكن لي كقولك يا سيدي؛ أعطت فمها، وحينئذ أخذت الثمرة في حضنها.
فتحت الباب باختيارها، ودخل ابن الملك، لأنه بالحرية يُكرَّم ختم البتولية الكامل...
بشَّر موسى الشعب أن العلي ينزل، ولما تقدَّس حينئذ نزل الآب على الجبل.
هكذا جاء الملاك بالبشارة إلى المؤتمنة، ولما سمعت واستعدت حينئذ حلَّ عليها[12] .

القديس مار يعقوب السروجي

الكائن مع الآب أشرق من مريم

أحنت القديسة مريم رأسها في خضوع وإيمان، فتحقَّق التجسد الإلهي بطاعتها وقبولها لخطة الله. للحال حلَّ فيها شمسُ البرّ. صارت القمر المُنِير. استنارت القديسة مريم بذاك الذي تجسد منها، وحملت بهاءه في داخلها، وتزيَّنَتْ به؛ صار سرّ جمالها الداخلي.

❖ أشرق في البطن، بينما يُشرِق نوره على المركبة (الإلهية)، في البطن تم حَبَله.
هو في مريم بكليته، وفي أبيه بكليته، وهو في الكل؛ يُرعِب الكاروبيم... وموجود عند الكل.
سلطانه مُمْتَد على الخليقة، وحالٌ في مريم، ضابط العلو والعمق، حالٌ في أمه...
حين حلَّ فيها أضاء أفكارها بالإيمان؛ فحملت البهاء، وأشرق الجمال بشبابها.
أرعدت المقصورة بالملك الذي دخل وحلَّ فيها، وابتهجت البتول بالرب القدوس الذي حملت به.
وحيث تدهش، تتباهى بزرعٍ، وتفتخر برهبةٍ، وأيضًا بالمخافة والتشجيع المُبهِج والتفاوض النقي[13].

القديس مار يعقوب السروجي

زيارة القديسة مريم لأليصابات

إذ تجسد الكلمة الإلهي في أحشاء القديسة مريم، صارت سماءً ثانية تحمل المراحم الإلهية، تُمطر على كل أرض ظمآنة تلتقي بها، فتأتي بثمرٍ روحيٍ. لقد صارت مُمثِّلة للبشرية المؤمِنة، أو ممثِّلة للكنيسة بكونها قبلت الإيمان بوعد الله، وانحنت ليحلَّ كلمة الله فيها. فإذ تمتَّعت بالكلمة داخلها لم تستطع إلا أن تنطلق "بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا" ،لتلتقي بنسيبتها اليصابات. صورة حيَّة للكنيسة الحاملة للعريس فيها، والتي لن تستريح، بل تنطلق عَبر الأجيال كما على الجبال لكي تُقدِّم عريسها لكل إنسانٍ في العالم. بالمنطق البشري كان يلزمها أن تتوارى، وتبحث الأمر في نفسها ومع خطيبها، لتدبير أمر الحبل والميلاد، لكنها

[12] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[13] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

وقد حملت ذاك الذي يقوم بتدبّير أمور الخليقة السماوية والأرضية، بروح الخدمة انطلقت إلى الجبال إلى مدينة يهوذا تخدم اليصابات. إن حملنا مسيحنا في داخلنا ننطلق بقلب مُنفتِح، ونخرِج عن "الأنا"، فنحب الجميع، مشتهين خدمة الكل!

همست البتول الوديعة في أذنيّ نسيبتها، فتحرك الجنين يوحنا المعمدان، ليرقص أمام الجنين الجرو الأسد الذي يربض على الصليب. تحرك الجنين الكارز برهبة مع بهجة وتهليل. قام بأول عمل كرازي له قبل أن يكتمل نموّه ويولد، ودعا أمه أن تسجد للكلمة المتجسد. امتلأت أليصابات من الروح القدس، ومارست التسبيح كما مع الملائكة.

❖ صعدتْ مريم السحابة المملوءة رحمة، لتمضي وتسقي الأرض الظمآنة التي صار فيها ثمرة.

جلس الملك على المركبة المملوءة قداسة، ليخرج ويفتقد عبده بغناه...

قامت البتول وتعالت إلى بيت العجوز، لكي تكثر الدهشة بالصبية والعجوز...

زأر جرو الأسد في بطن أمه كما كتب يعقوب (تك 49: 9)، وارتعد العجل ابن العاقر لما سمع صوته. همست الصبية في أذني العجوز بهدوءٍ، ودبَّ الصوت، ودخل حرَّك كاروز الحق.

تحرَّك الطفل برهبةٍ أمام ابن داود؛ رقص مُبتهِجًا أمام التابوت.

أشار إلى أمه أن تسجد بغير تأخير، لسيده الآتي إليه على الباب.

فاض الروح من القديسة للعجوز العاقر؛ وسكب فيها قوة لتكرز لأمه بالحقيقة...

امتلأت ابنة اللاويين بالروح القدس؛ ورتلت بشفتيها الأصوات المملوءة مجدًا[14].

القديس مار يعقوب السروجي

تسبحة اليصابات

شعرت القديسة اليصابات بفرح جنينها وبهجته، مع مخافته للكلمة المتجسد. حسبت ابنها المحبوب لديها جدًا قشًّا بجوار كلمة الله النار الإلهية. أدركت أن ابنها سراج صغير أمام حضرة شمس البرّ!

يقول القدّيس أمبروسيوس: [ظهرت في الحال بركات زيارة مريم ووجود الرب، لأنه عندما سمعت اليصابات صوت سلام مريم، ارتكَض الجنين بابتهاج في بطنها وامتلأت من الروح القدس.

كانت اليصابات أول من سمع صوت مريم، لكن يوحنا كان أول من تأثر بالنعمة...

عرفت اليصابات قدوم مريم، وشعر يوحنا بوجود المسيح، شعرت المرأة بوجود المرأة، والجنين شعر بوجود الجنين، وبينما كانتا تتحدَّثان عن النعمة، كان الجنينان يحقّقان في الداخل عمل المراحم الإلهيّة. ارتكَض الطفل ثم امتلأت الأم، إذ لم تمتلئ قبل الطفل.]

❖ كم أنا سعيدة، لأني استحققت أن أنظر الطوباوية، السماء الجديدة، التي جاءت ودخلت عندي...

بطنكِ مخوف أكثر من السحاب الذي لطور سيناء، لأن هوذا فيكِ الذي يرتعد أمامه الكاروبيم...

[14] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

امضي أيتها العظيمة إلى مكانك لتلدي...

امضي، اخفي شبل الأسد في مسكنك الهادئ، لأن الحمل الذي في أحشائي يخاف منه أن يولد!... ليس حسنًا أن تقوم النار (يسوع) قدام القش (يوحنا).

لهذا جلس في الأحشاء ولا يخرج، لأنه خاف لئلا يضني من اللهيب الحال فيكِ.

لتمضي الشمس، فيشرق السراج الصغير على الأرض. انتقلي من هنا، لئلا تُهان ثمرتكِ منا[15].

القديس مار يعقوب السروجي

يوسف البار

يصوِّر لنا القديس مار يعقوب السروجي موقف القديس يوسف بعد رجوع القديسة مريم، وقد ظهرت عليها علامات الحَمْل. فالحَمْل يصرخ بأن جنينًا في البطن، وفي نفس الوقت خبرته مع القديسة مريم لا يمكن تجاهلها، حياتها تكشف عن كونها حمامة طاهرة بهيَّة. ارتبك للغاية، إذ رأى الطاهرة مريم قد أدركت ما بفكره، فقالت في داخلها: "ها ابني يشهد أنه من العلو، وأنا لم أشعر برجلٍ قط."

❖ نظر الخطيب البار بطنها، وصار في دهشٍ، نظر الصبية إنها عفيفة ورعة، فارتعب قلبه.

شكلها عفيف، وأحشاؤها مملوءة، فماذا يقول؟ منظرها ورع، وبطنها حامل، فكيف يتفرس؟...

تعجب جدًا ببهاء كرامتها، وارتعب جدًا من منظر الحَبَل.

كلما أطال يوسف روحه على ما حدث، تصرخ البطن الحبلى أن الطفل حال فيها.

تقدَّم بهدوء، وبدأ يقول بلطفٍ: قولي لي أيتها الصبية، ماذا حدث لكِ...

أيتها السفينة المحفوظة، أين توقفت سرعتك؟ أي بحر خطف تجارتكِ بين أمواجه...

أيتها الحمامة البهية، من الذي قصّ جناحك الحسن، ونتف ريش صحة ورعكِ وأخذه.

أيتها الورعة، من الذي سرق جوهرتكِ... واقترب إلى الأختام المحفوظة وأفسدها.

أيتها البهية كل يومٍ، متى نقصت كرامتك، وفي أي يوم سقط اللصوص وسرقوا غناكِ.

أيتها المدينة الحصينة، من الذي سبى سورك واقتلعه، وأخرج النهب مع السبي إلى الغرباء.

أيتها الحقل المحفوظ، من طرح فيك زغلاً مسروقًا، لأن هذا العارض ليس هو منا.

فقالت مريم: ... جوهرتي محفوظة عندي لم تُسرق، وختم بتوليتي قائم لم يفسده أحد...

ها ابني يشهد إنه من العلو، وأنا لم أشعر برجلِ قط[16].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[15] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

[16] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

حوار بين يوسف ومريم

يتصوّر القديس مار يعقوب السروجي أن القديس يوسف، وقد سمع ما قالته القديسة مريم بأن الذي في أحشائها من الأعالي، ولم يمسّها رجلُ ما، تعجّب. ولكن كيف يتحقق من أمرٍ لم يحدث من قبل ما يُشبِهه عبر كل الأجيال السابقة: أن بتولاً تَحْبَل بدون زرع بشر.

أجابته القديسة مريم موضّحة له أن الطبيعة تسمح بميلاد أبناء دون زواج فتاة برجل:

1. فبمن تزوجت الأرض، حين أنجبت ابنها آدم (تك 2: 7)؟
2. وكيف ولد آدم الرجل حواء بغير زواج (تك 2: 21 الخ)؟
3. كيف أنجبت الشجرة كبشًا مربوطًا بقرنيه ليُقدِّمه إبراهيم ذبيحة (تك 22: 13)؟
4. بمن تزوجت الصخرة، فأنجبت أنهارًا شرب منها الشعب في البرية (خر 17: 6)؟
5. كيف أفرخت عصا هرون الجافة أغصانًا (عد 17: 8) على غير العادة؟
6. كيف أنجب فك الحمار الميّت ماء شرب منه شمشون الجبّار (قض 15: 18)؟

هذا حدث خلال الطبيعة على غير العادة، فهل يستحيل أن يتجسد كلمة الله القدوس في البتول؟ أما عن الكتاب المقدس، فتبقى عبارات إشعياء النبي شاهده أن بتولاً تحبل وتلد ابنًا يُدعَى عمانوئيل (إش 7: 14).

❖ قال يوسف: من يقدر أن يتحقق من هذا، إذ لم يحدث ما يُشبِهه، ولا نظر أحد ما يُشبِهه.

لم يُسمَعْ قط أن يكون حَبَلُ للبتولية بدون رجلٍ؟ يعسر عليَّ أن أصدق كلام فمكِ الجديد هذا. لم يُعلِّمْ بهذا لا بالطبيعة ولا بالكتاب المقدس؛ فكيف يمكن أن يكون منكِ ما هو ليس بحسب العادة.

قالت مريم: إن كنتَ تطلب شهادة لكلامي، سهل أن تسمع للطبيعة وللكتاب. من تزوج بالأرض وولدت آدم (تك 2: 7)؟ أو بمن التصق الرجل حتى ولد حواء (تك 2: 21 الخ)؟ من تزوج الشجرة فولدت الكبش (تك 22: 13)؛ أو من عرف الصخرة فولدت الأنهار (خر 17: 6)؟

بأي زواج أفرخ القضيب على غير العادة (عد 17: 8)؛ وبأية مباشرة أنسل الفك المائت الماء ليسقي (قض 15: 18)؟ من أنجب بهذه الأحضان هؤلاء الأطفال؛ إن كان هذا عندي وحدي، فهو غير حقيقي. اقرأ في الأنبياء وانظرْ الأخبار المشابهة لي في الأسفار التي كرز الروح بها للأنبياء. ألم تسمع إشعياء حيث كرز، يقول: "ها البتول تحبل وتلد عمانوئيل" (إش 7: 14)؟!...

حوَّلتْ عينيها نحو حضنها، وتوجهت بمحبة إلى الكائن في أحشائها، وقالت:

أيها الحق الذي به ظُلمت، أشرق حقك، لا تحجب عن المسكين حقيقة أمك.

اظهر فعلك للأب المستعار (يوسف) الذي لك في الأرض؛ لئلا يبتعد منه سرّ ميلادك.

أيها الرحوم أشفق على برّهِ كما رحمني؛ وباستعلانك فرِّح قلبه وانزع عنه حزنه.

يا ابني لا تحجب حَبَلك عنه، لئلا يهلك؛ اعتذر له عوض والدتك، لئلا يتشكك...

صرتُ أهلاً أن أتحد بخطبته؛ أهِّله أيضًا أن يكون قريبًا لميلادك المملوء قداسة.
لا تتركه يختنق بالشوك من أجل حَبَلك؛ بل الصقه بميناء إيمانك المملوء رجاءً[17].

القديس مار يعقوب السروجي

ملاك الرب يظهر ليوسف

يرى القديس مار يعقوب السروجي أن الذي كرز للقديسة مريم بالحق (الملاك جبرائيل) طار إلى يوسف، ليطرد عنه فكر الشك. يصفه القدِّيس أنه هبّ كالريح، وأبرق حوله، واشتعل كالنار، وتكلم معه كما بصوت الرعد. خرجت كلماته من فمه كجمر نارٍ، وبظهوره امتلأ البيت بالسحاب. بهذا الظهور في الحلم العجيب ارتعب يوسف البار، فقدم له رسالة تطمئنه، أن الجنين هو عمّانوئيل!

❖ لما استراح البار بنومٍ في هدوء الليل، أشار ابن البتول للملاك، فأتى إليه.
نزل الرسول الذي حمل البشارة لحضن أمه، وجاء يظهر ليوسف رجل المؤتمنة.
أتى الكارز بالسرّ ليُظهِرَ الحق لذاك المُتشكِّك؛ ويوضح خفية الحق بطريقةٍ ظاهرةٍ.
طار الروحاني، وبلغ إليه بسرعة، ليطرد عنه أفكار الشك...
أظهر وأراه إقبالاً موهوبًا ممجدًا ومدهشًا؛ لكي بالهدوء يسمع من الخفيات.
هبَّ كالريح، وحلَّق كالبرق، وبلغ إليه؛ اشتعل كالنار، وتكلم معه كالرعد...
أولد البروق من لهيبه؛ أشرق كالشمس وملأ البيت من شعاعه.
أبرق بهاء اللهيب وارتعب يوسف؛ فتح الملاك فمه وأمطر الجمر من ألفاظه.
مدَّ ريشه وألبس البيت سحاب نوره؛ بدأ يتكلم، وارتعب البار على سريره.
دعاه قائلاً: يا يوسف بن داود لا تَتَشَكَّكْ. أعطاه إكليل رأس كلامك أنه ابن داود...
إن جنس (خطيبتك) من يهوذا، من بيت داود، فمنها يُشرِقُ ذاك الذي له التدبير.
لا ترتعب ولا تخف منها بالشك، لأن الحال فيها هو ابن العلي بالحقيقة...
ها هو عمانوئيل بخطيبتك الذي تفسيره الله معنا[18].

القديس مار يعقوب السروجي

يوسف يضم مريم إلى بيته

بحديث الملاك مع القدِّيس البار يوسف تحوّل الأخير إلى اليقين المفرح، أن من معه هي أم الملك، مركبة ملك الملوك، حاملة الرب بالحق، رب الملائكة الذي تخضع له الطغمات النارية السماوية، لأنه ابن الله. اعترف لها أن شكّه إلى حين حوّله إلى الالتزام بعملٍ كرازي، يشهد للحق أمام المقاومين الظالمين. تحوّل النجار البسيط إلى خادم نقي، صاحب قلب ناري.

---

[17] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[18] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

❖ تركه الملاك، واستيقظ يوسف خائفًا مُرتعِبًا، في دهشةٍ وخشيةٍ، يرهبه الرعب.

صار مُعترِفًا بالحق، ومملوءًا بالفرح، مُتَّكِلاً (على الله) مُتشدِّدًا مُمجِّدًا، ومُعترِفًا، مُعظِّمًا، ساجدًا.

نظر الطاهرة، وانحنى قدامها، وقال: السلام لك يا أم الملك الآتي لشعبنا.

أنحني لكِ أيتها البطن، مركبة سيد الملوك، أعترف لكِ أيتها الصبية، حاملة الرب الحق.

إن الحال فيكِ هو رب الملائكة، تطيعه صفوف النار، لأنه ابن الله... الآن تعلمت، ولن أهدأ من تمجيده، وأصير كارزًا للحق قدام الظالمين. ولأني تشكَّكتُ وقتًا قليلاً لأجل حبَلَكِ، يكرز لساني مدة حياتي بحقيقة المولود منك... أخذ يوسف المؤتمنة ودخلتْ بيته، وباحتفاظ سكنت البتول مع القديس... صار النجار كارزًا للتجسد للمسكونة. وتَسَلَّم الخدمة بنقاوةٍ وخوفٍ عظيمٍ[19].

القديس مار يعقوب السروجي

الاكتتاب في بيت لحم

انشغل قيصر بعمل اكتتاب، حتى يدفع كل إنسانٍ جزية للدولة الرومانية المستعمرة للبلاد. بينما جاء ملك الملوك ليسجل أسماء المؤمنين في سفر الحياة، فيُعتقوا من عبودية إبليس. طلب الملك الأرضي أن يذهب كل إنسانٍ إلى بلده ليُكتتب فيها، وأراد الملك السماوي أن يكتتب آدم وبنيه لا في جنة عدن، بل في سفر الفردوس السماوي.

❖ ملكان بآنٍ واحدٍ يحصيان الشعب. يكتب قيصر (أسماء) الناس للجزية، ويرسم الابن أولاد آدم في سفر الحياة. يتحايل الواحد ليخضع له بنو البشر، ويهتم الآخر أن يحل أسْرَ المشجوبين.

تزامنت الكتابة الناطقة التي للملكين: الملك على الأرض، والابن في العلو، يكتبان الأسماء...

حين قدَّموا إحصاء الناس للعبودية، كُتِبَ تمتعهم من العبودية من العالي.

خرج الأمر أن يُكتَب اسم كل واحدٍ في بلده، إذًا كُتِبَ اسم آدم في عدن لأنها بلده[20].

القديس مار يعقوب السروجي

في بيت لحم

انطلقت البتول مع خطيبها يوسف إلى بيت لحم أفراثة لتلد في مغارة مصوّر الأطفال. وُلد في مغارة حجرية، لكي يقيم منها سماءً جديدة. وُلد السيد في مكان مستعار، وهو الغني يقطن مع الفقراء.

❖ حملت البتول سيد الملوك في حضنها الطاهر، وتحرَّكَتْ وصعدت مع يوسف إلى أفراثة...

ضرب الحَبَلْ أم الصبي لتلد الطفل، لأنه بلغ وقت مولد مُصوِّر الأطفال.

عرف قرية داود، ودخل ليحلَّ فيها، لكي في أماكن الملك أبيه يُكرَم.

وإذ لم يكن لأمه في بيت لحم مكان، مالوا إلى المغارة، السماء الحجرية، ليحلوا فيها.

---

[19] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

[20] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

دخل الغني مع المساكين في مسكن مستعار، وحلَّ الضعفاء مع القوي في الوكر المجوَّف...
الحمامة الطفلة حلَّتْ لتلد في بتوليتها، ذلك النسر الشيخ ملك الطيور، في العش الصغير[21].

القديس مار يعقوب السروجي

لم يزل إلهًا، جاء وصار ابن بشر!

المولود من الآب أزليًا، المخفي ميلاده عن السمائيين، وُلد بين البشر. مخفي بلاهوته، ومنظور بناسوته، من يقدر أن يفحص سرّه الإلهي؟!

❖ (المولود) هو الله الذي حملته البطن بالبتولية؛ وأيضًا هو إنسان، لأن حضن مريم ولده جسدانيًا.
واحد هو ميلاد الابن الحقيقي الكامل المُدهِش؛ مولود من الآب، ومخفي عن الملائكة، ومسجود له من الناس. الوحيد من الأزلية ومن الإنسانية، ابن العظمة وابن مريم، المُخلِّص الواحد.
واحد هو سيد الكل من العالي ومن ابنه داود؛ واحد هو العزيز من النورانيين والجسدانيين.
مخفي بألوهيته وظاهر بإنسانيته من يفحصه؟! مستور بطبعه ومحققُ بجسده، وبالجميع مدهش...
يُرعِبُ الكاروبيم ولابس الجسد، وهذا هو الدهش! يُعطِي المطر ويرضع الثدي، وهذا هو العجب![22]

القديس مار يعقوب السروجي

المجد لله في الأعالي

من يقدر أن يصف مواكب السمائيين النورانيين التي أسرعت قادمة من السماء لتُضيء الليل ببهائها في مغارة مُستعارة؟! اهتزّت السماء، فقد نزل السمائيون ليمجدوا ذاك الذي وُلد كإنسانٍ، فحوّل الأرض سماءً.

❖ أشرق النورانيون، وهبَّ الروحانيون، واجتمعت الصفوف. مجدَّت الألوف مع الربوات بأصواتٍ تدهش. أرعد المجد من صفوفهم السمائية، وشقَّ بهاء الملائكة الليل بقوته...
نزل العاليون، وساروا على الأرض، وجعلوها سماءً...
اختلط العاليون مع السفليين، وعقدوا التاج من الاعتراف للواحد سيد الكل[23].

القديس مار يعقوب السروجي

الملائكة والرعاة

تحركت السماء في دهشةٍ عجيبةٍ، واشتاق الكل أن يسجدوا للمتجسد محب خليقته. بينما ساد الأرض صمت رهيب. تحرك السمائيون، ليوقظوا رعاة بسطاء ساهرين في رعايتهم، لينطلقوا إلى راعي الرعاة السماوي، مخلص البشرية. ملك الملوك ومخلص

---

[21] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[22] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[23] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

العالم في مذود بسيط لا يرتدي تاجًا ولا ثيابًا ملوكية، ولا يحمل سيفًا، ولا أُعدت له مركبة ملوكية، فهو ليس في حاجة إلى مظاهر السلطة والقوة.

❖ أسرع الملائكة ليُبَشِّروا الرعاة؛ جاء راعي القطيع الناطق الهالك!
صرخ العاليون: نُبَشِّركم أيها السفليون. لقد أشرق لكم المسيح الرب في قرية داود.
ها المخلص جاء للمسبيين ولم يشعروا به، والراعي العظيم قام وسط غنمه ولم تنظره...
قوموا امضوا وانظروا الملك الآتي ليُخَلِّص شعبه؛ محتَقر ومتواضع، ويعمر الأرض بهدوئه.
ليس كمثل منظره هكذا هو سلطانه، لم يصور بلباسه سلطان قوته.
وإذ هو المخلص ليس بيده حربة ولا سيف، ولا أيضًا مركبة مزينة تحته. هو الملك، ولم يحتفظ لكرامته بشيءٍ يتعظَّم به، في مذود صغير ملفوف بالأقماط، وموضوع كالأطفال[24].

القديس مار يعقوب السروجي

لنذهب إلى بيت لحم

مع صغر المغارة وفقرها المادي، صارت مُلتقى السمائيين مع بسطاء البشر. سبّح الكل بلغته، هذا العمل الإلهي الفائق. وقفت البتول في دهشةٍ أمام ما يحدث، وتطلع القدِّيس يوسف برهبةٍ إلى الموقف. نظر إلى الطفل المضطجع العجيب.

❖ حمل الأطهار الحقيقيون قرابينهم وجاءوا، الحمل للكاهن، واللبن للطفل، والتمجيد للملك.
أسرع البسطاء، وزاحموا بين الملائكة إلى المغارة؛ دخلوا ونظروه، وسجدوا قدامه بقرابينهم...
اختلطت النغمات السماوية بترتيل البشريين، وأصعدت للابن ترتيلاً ملونًا من كل الأفواه...
الطفل صامت، والصفوف امتدت وعلت الأصوات؛ الملائكة يُسَبِّحون، والناس يُرتِّلون ويعترفون[25].

القديس مار يعقوب السروجي

العذراء تناجي يسوع

يتصوّر القديس مار يعقوب السروجي القديسة مريم وقد رأت القوات السماوية من ملائكة وكاروبيم وسيرافيم وعجلات سماوية نارية الخ، فطلبت أن يسمح لها أن تتحدث معه. وقفت الفتاة البتول الضعيفة أمامه تسأله أن يفسح لها مجالاً تسجد أمامه، ويهب ذراعيها قوة كالكاروبيم، فتستطيع أن تحمله، ويهب لسانها روح التقديس العظيم كما يسبحه السيرافيم، ويهب رجليها قوة العجلات السماوية فتنطلق به إلى أرض اليهودية.

❖ دُهِشَتْ مريم وقامت بالعجب عند المولود؛ هربت أوجاعها، وبغير ألمٍ سجدت لابنها يسوع.
ضمَّت يديها، وخرَّتْ قدامه في صلاةٍ، فتحت فمها وناجت ابنها بدالة:

---

[24] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).
[25] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

يا ابن المظلومة، ائذن لأمك أن تكلمك، سيد أُمه، لتأمر لأُمّك أن تُحدِّثك. اصرف الجنود ليصعدوا إلى مكانك بغير اضطراب؛ ها أنت هنا، فلتمضِ الملائكة إليك في العلو. انتهر النورانيين، ليفسحوا لي أن أتقدم إليكِ. أَعطِ لذراعيّ بقوَّتك عصمة الكاروبيم، لكي يحركاك بين المساكين الذين أكرمتهم... ضع على لساني التقديس العظيم الذي للسرافيم، لكي ينطق لك فمي التقديس بغير فتورٍ. ارسم في ضميري حركات الكاروبيم العظيمة ليبارك اسمك العظيم المخفي من الكل. هب لرجليَّ حدة العجلات المُسرِعة، لتنقلك إلى أرض اليهودية كما يحسن لك... أعطِ يا ابن الملك المجد العظيم لحضن أُمّك، لكي يكون مثل المركبة تتكرَّم بها بالبهاء العظيم[26].

القديس مار يعقوب السروجي

هذا هو اليوم العظيم

كل الأيام هي للرب، فكم بالأكثر يوم ميلاده، كابن البشر، ليحقق الخلاص الذي يشتهيه الثالوث القدوس. إنه يوم الرب المفرح لآدم الذي سقط حين ظن أنه مع حواء يصيران كالله ففقدا حياتهما وجمال طبيعتهما. الآن صار لهما حق شركة الطبيعة الإلهية حيث يتمتعان مع أبنائهما المؤمنين بأيقونة المولود! اليوم يفرح الأنبياء والملوك الأتقياء، فقد جاء عمّانوئيل الذي تنبأوا عنه.

اليوم تهلل الذين في القبور، حيث يشرق شمس البرّ عليهم.

❖ في يومك العظيم هذا تُسر الأرض وكل ما عليها، وعوض الشوك تنبت الخيرات من ميلادك!

في هذا اليوم يفرح آدم رئيس الأجناس... في هذا اليوم تفرح حواء أكثر من آدم، لأنه أشرق منها طفل بغير ألامها وأوجاعها. في هذا اليوم تُسَرُّ الجنة وأشجارها، لأن بك يُرَد الوارث المطرود (لجنة) عدن مسكنه. في هذا اليوم تعرَّفت على الشعوب في جميع الأقطار، لأنهم كانوا مُبدَّدين بجميع العبادات، وتجمَّعوا بك... في هذا اليوم تفرح صفوف الأنبياء، لأن استتارهم اتضح بميلادك. في هذا اليوم يشد داود أبوك أوتاره، ويُرَتِّل بالكنارة (مثل القيثارة) لميلادك الآتي للظهور. في هذا اليوم يشعر إشعياء في قبره أن عمانوئيل تقدَّم كما تنبأ عنه... في هذا اليوم يُشرِقُ مجدك على قبور (الأنبياء) ويوقظهم ليُمَجِّدوا بقيثاراتهم[27].

القديس مار يعقوب السروجي

فلنسبح مع الملائكة

يتلمس القارئ مشاعر القديس مار يعقوب السروجي، وقد اقترب من ختام الميمر. يتطلع إلى القديسة مريم، وقد امتزجت مناجاتها لابنها بتراتيل السمائيين له. يرى في القديسة تمثيلاً للكنيسة العروس المتهللة بعريسها. بميلاد هذا الطفل العجيب انتهت فترة الحزن التي سادت على البشرية منذ سقوط الأبوين الأوّلين، وجاء وقت الفرح المجيد. إذ صارت البشرية العروس المتهللة مع السمائيين.

كانت عبدة ذليلة، يستعبدها عدو الخير، مربوطة بعبادة الأصنام، فصارت العروس الحرّة التي حررها عريسها من قيود

[26] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

[27] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

الشيطان. كانت حبيسة الظلمة، أشرق عليها شمس البرّ فاستنارت.

كانت كمن بلا مأوى، لأن مسكنها سقط، وجاء المهندس السماوي وبنى لها بيتًا أبديًا.

كانت تحمل متاعب آدم المضطرب، فصار لها سلام آدم الجديد.

❖ في هذا اليوم رتَّلَتْ مريم هذه الأصوات، وأنشدت البتول للطفل الهادئ ترتيلاً حلوًا.

اختلطت مناجاتها بترتيل السمائيين، والتصق صوتها بالرعد العظيم الذي للسيرافيم.

غلب تسبيحها هتاف الملائكة العلويين، لأنه بدالة رتَّلت لابنها عندما ولدته...

عظيم هو مجد هذا اليوم أكثر من كل الأيام، ومجد جمال هذا العيد من كل الأعياد.

استيقظي أيتها الكنيسة بتراتيلك الحسنة، وقرّبي للابن أصناف الأصوات في يوم ميلاده...

في هذا اليوم ابتهجت التي كانت متروكة في الحزن، لأن العريس جاء وابتدأ يجمعها من بين الصور. في هذا اليوم انتهت مدة الحزينة، لأنه صار العرس لتتعزَّى فيه من حزنها.

في هذا اليوم صار العتق للمُستعبَدة؟ لأنها كانت مرتبطة بخدمة الأصنام.

في هذا اليوم انحلت الرباطات، لأن الجبار قام وكسر القيود التي حبستها.

في هذا اليوم اقتنت الحرية مسبية الشياطين، لأنهم هربوا من الرب الحق، واسترد ما له.

في هذا اليوم خرجت المسجونة في الظلمة، لأن النور أشرق، وحطَّم أبواب الظلمة...

في هذا اليوم بنى المهندس البيت الذي سقط، وسنده باللاهوت لئلا يقع.

في هذا اليوم صار تحقق الرضا على آدم من قبل سيده، لأن الابن أشرق وألقى السلام بينهما.

القديس مار يعقوب السروجي

هو الراعي والطبيب والمُخَلِّص

في هذا العيد تحوّلت العبدة الأسيرة إلى عروس متهللة حرّة تشارك السمائيين حياتهم، وتعرّفت القطعان البشرية على راعيها السماوي. الفريد في رعايته وحبه. تتجلّى رعايته في الآتي:

1. يُعلن مجده بحبه، فيحمل الخروف الضال، ويدخل به إلى المرعى السماوي، الفردوس!
2. يحطم خطة الذئب "إبليس"، الذي لا يكف عن عزل الخراف عن راعيها.
3. يربط عدو الخير المتمرد، ويحطم مسكنه، لينطلق بالخراف إلى الحظيرة السماوية.
4. يُدعى المحرر، فهو وحده قادر على حلّ رباطات الخطية وقيودها.
5. إنه الراعي الطبيب، يضمد الجراحات، ويشفي الأمراض.
6. يقدم نفسه ملحًا يُصلح ما حلّ بنا من فسادٍ.
7. يشدد النفوس المرتخية، ويزيل خداع الشهوات.
8. بميلاد الابن يقدم الآب كنوزه ليُغني الكل.

❖ في هذا اليوم وجد الراعي الخروف الضال، وحمله على كتفه بتعظيم، ودخل به إلى الفردوس.

في هذا اليوم رجع قطعان الشعوب الذين كان قد عزلهم الذئب الخفي من راعي الكل...

في هذا اليوم قام القوي على المُتمرِّد، وربطه بالقيود، وحطم مسكنه المخصب.

في هذا اليوم جاء المُخَلِّص للمسبية، وربط السابي بالعصمة، وردّ الذين له. في هذا اليوم جاء الطبيب للمضروبين، وضمَّد وشفى... في هذا اليوم نزل الملح من العلو، ليصلح طعم جميع المذاقات. في هذا اليوم تشددت النفس المرخية، ونست خداعات الشهوات التي التصقت بها...

في هذا اليوم خرج الأمر من بيت الملك، أن في إشراق يوم وحيده يُغنِّي الكل[28].

القديس مار يعقوب السروجي

ثمر الحياة

في وسط البرد القارص لا يجد الإنسان عنقودًا على فروع الكرمة، لذلك تقدم كلمة الله المتجسد كعنقودٍ إلهيٍ يتسلمه المؤمن ويبتهج به.

❖ في هذا الشهر الذي لم يكن فيه ثمار، أرسل ثمرة الحياة ليقوتنا بصحته... في هذا الشهر الفارغة فيه جميع الأغصان؛ نالت البتول عنقودًا في داخل حضنها. في هذا الشهر الذي فيه الأوراق منتثرة من الأشجار، تعوّضت أوراق آدم بلباس النور... في هذا الشهر الذي فيه الأرض منزوع عنها كل بهجةٍ، أُرسل الخير العظيم لجميع النفوس[29].

القديس مار يعقوب السروجي

على الأرض السلام

في هذا اليوم يحل السماوي على الأرض فتحولت إلى أرض معركة عنيفة.

1. جاء ملك الملوك واهب السلام.
2. صدر بالمخلص مرسومًا لينعم الأموات بالمراحم الإلهية.
3. انفتحت أبواب السماء، ونزلت الملائكة تُسبّح المخلص، فتشترك الشعوب معهم في تسابيحهم.
4. في هذا العيد وُهب الأرضيون حق مشاركة السمائيين عبادتهم على مستوى سماوي.
5. في هذا العيد حوَّل حياتنا إلى رحلة عظيمة مُبهجة.

❖ في هذا اليوم تجدّدت الأمور العتيقة، وفيه تعوَّضنا عن الأولويات بسيد الملوك...

في هذا اليوم كثرت الترتيبات الخاصة بالأحكام؛ وفيه أُرسل الحكم بالمراحم للأموات.

في هذا اليوم أمر الملوك بأمور جديدة؛ وخرج الأمر أن تتجدَّد الأرض ويملك السلام.

---

[28] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

[29] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

في هذا اليوم هتفت الملائكة بكناراتهم (أو بقيثاراتهم)، وفيه اعترفت الشعوب المخلصون بألسنتهم.

في هذا العيد يخدم السمائيون الابن؛ ويتمجد بالسجود من الأرضيين.

في هذا العيد رتَّلت المجد لميلادك؛ وفي يومك العظيم أنظرُ تحنن لاهوتك[30].

القديس مار يعقوب السروجي

ما هي هدايا العيد!

ختم القديس مار يعقوب السروجي ميمره بالكشف عن هدايا العيد؛ فما هي؟

1. في هذا العيد يقدم مار بعقوب للكنيسة هذا الميمر ليبث روح الفرح في الجميع.
2. تقدم الكنيسة للبشرية شخص الابن المتجسد الذي يجعل المؤمنين إخوة في الميراث الأبدي.
3. يطلب القدِّيس تمجيد الثالوث القدوس، الذي يسكب رحمته على البشرية على مستوى أبدي.

يقول القديس مار يعقوب السروجي: [لقد قدمتُ في هذا العيد لكنيستك أصناف أصواتي؛ في ذاك الأبدي لأكون نديمًا في بيت عُرْسِكَ. في هذا العيد لأبيك المجد، ولك العظمة، والروح القدس إكليل الاعتراف؛ وعلينا رحمتك إلى الأبد، آمين.]

[30] دير القديس مقاريوس: ميمر "على ميلاد ربنا بالجسد" (قام بنسخه القمص بطرس السرياني).

في هذا اليوم رتّلَتْ مريم هذه الأصوات، وأنشدت البتول للطفل الهادئ ترتيلاً حلوًا.

اختلطت مناجاتها بترتيل السمائيين، والتصف صوتها بالرعد العظيم الذي للسيرافيم.

غلب تسبيحها هتاف الملائكة العلويين، لأنه بدالة رتّلت لابنها عندما ولدته...

عظيم هو مجد هذا اليوم أكثر من كل الأيام، ومجد جمال هذا العيد من كل الأعياد.

استيقظي أيتها الكنيسة بتراتيلك الحسنة، وقرِّبي للابن أصناف الأصوات في يوم ميلاده...

القديس مار يعقوب السروجي